

الفصل الثالث

أولاً: فضل الحضارة الإسلامية في المدنية الأوروبية

عندما امتلك المسلمون ناصية الثقافة في القرون الوسطى، ونعموا بتحرية الفكر والرأى، ونالوا من الحياة الفاضلة الكريمة أوفى نصيب، كان الفقر والتخلف يعم أنحاء أوروبا، التي كان يغطي الكثير من مساحاتها الغابات الكثيفة، وتنتشر بها المستنقعات المتناثرة في أرباض المدن، والتي تنبعث منها الروائح الكريهة، والغازات السامة، والأبخرة الضارة، كما أنها المصدر الأساسي للأوبئة الفتاكة.

وكانت البيوت في باريس ولندن تُبنى بالحجر غير المنحوت، والطين المخلوط بالقش، وهى ضيقة النوافذ غير محكمة الإغلاق، وأرضها تغطي بالقش المنتور، لأنهم ما كانوا يدرون بعد ما البُسط!، ولم يكن الناس في تلك المنازل أحسن مسكناً وأمناً من الحيوانات التي كانوا يؤونها معهم أو يربونها من أجل الحياة على إنتاجها من لحم، ولبن، وما تساهم به في الزراعة البدائية.

وكان الغربيون في تلك القرون متوحشين جاهلين، لا أمن فيهم، ولا إدارة، ولا حكام يعرفون واجبهم في إقامة العدل، وتوطيد الأمن، وهم في كل أحوالهم إلي حياة البادية أقرب منهم إلى حياة المدن.

وإلى القرن قبل الماضى لم يعرف ملوكهم فضلاً عن استخدام المراحيض ولا الحمامات، وكانوا يبصقون على الطنافس^(١) والمقاعد حتى في قصر العظماء.

وكانت الأسرة من الأوروبيين تنام في حُجرة واحدة، تضم الرجال والنساء والأطفال، وكان السرير عندهم عبارة عن كيس مملوء بالقش، وفوقه كيس مملوء بالصوف يستخدمونه كوسادة، وكان الواحد منهم ينام فوق رأسه سلاح لصد هجوم يتوقعون قيام اللصوص به، ولم تعرف شوارعهم الحجارى ولا المصابيح.

وقد عمّت الجهالة أوروبا، وسادتها الأوهام، وانحصر التداوى عندهم في زيارة الأماكن المقدسة، بينما كان رجال الدين منهم يفزعون إلى الصلوة إذا دأهم البلاد وباءً، أو مرض فتاك، ومع إهمالهم أمر النظافة فتكت الأوبئة بالملايين منهم.

(١) الطَّنْفَسَةُ: البساط (ج) طنافس، وتنطق بضم الطاء، أو فتحها أو كسرهما مع فتح

الفاء أو كسرهما أو فتح السين أو كسرهما.

واجتمعت الأضداد فى أوروبا حيث الغرب الأوروبى يسكنه الناس فى مدن صغيرة وأكواخ حقيرة، وكانت قلاعهم لا هندسة لها، وسادت ممالكهم الإضطراب لدوام الحروب والمنازعات، ومن ثم انعدم الإحساس بالأمن لإنتشار عمليات السلب والنهب والسطو على المسافرين، بالإضافة إلى عمليات السرقة المنظمة التى يمارسها اللصوص المحترفون، بينما الجنوب الشرقى لأوروبا شيدت فيه المدن الضخمة مثل القسطنطينية، وغيرها، على النسق المعمارى - العربى والإسلامى - فى كل من دمشق وبغداد والقاهرة، وقد حوت كل مدينة من هذه - القصور الفخمة، والحدايق الغناء، والأسواق والمدارس - وتناثرت حولها القرى والضياع، وقد نعم التجار والمسافرون بالأمن والسلام وهم فى حركة دائبة آمنتين مطمئنين^(١).

وفى ذات الموضوع ذكر كاتب غربى «لاشك أن العالم الإسلامى، والعالم البيزنطى - كانا أغنى، وأحسن نظاما ونورا من العالم الغربى، فكان النصرارى يشعرون بنقص فى التهذيب، ويعجبون باهتتين بما شاهدوه من غرائب الشرق، وكان من يحب أن يتعلم منهم يقصد إلى مدارس العرب^(٢).

بينما كان شارلمان أعظم ملوك أوروبا، وحاكم فرنسا وألمانيا، وشمال إيطاليا. كان أقرب إلى الأمية منه إلى نور العلم، وكان أدب عصره فى فرنسا يشبه أدب الصبيان فى المدارس اليوم، بينما كان الخلفاء والملوك المسلمون يجمعون العلماء فى قصورهم ليتناظروا فى العلوم المختلفة، وما كان لهم من مجلس يخلو من العلماء الذين ينصتون لهم ويأخذون عنهم، ومن الخلفاء من يستصحبون العلماء فى غزواتهم، أو يأخذون أحمالا من الكتب فى رحلاتهم^(٣).

وكان علماء الإسلام يتنافسون فى مختلف العلوم العقلية، والأدبية، والمادية، ويُترجمون تراث الأقدمين من اليونانية، والسريانية، والفهلوية إلى لغتهم العربية، ولشدة ولع الخليفة المأمون بذلك طلب من عدوه قيصر الروم أن يرسل ما عنده من كتب الإغريق ليقوم العرب بترجمتها^(٤).

وقد بدأ العالمان الشرقى والغربى يتعارفان فى القرن الحادى عشر الميلادى، ودخل النصرارى المتوحشون حمى الإسلام والمسلمين المتمدنين عن طريق الحرب والتجارة، خاصة فى عصر الفتوحات الإسلامية.

(١) التاريخ العام - لانيس ورامبو - بتصرف .

(٢) تاىخ الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامى ط. ث ص ٢٠٢ .

(٣) تاريخ الحضارة - سينوبوس .

(٤) مروج الذهب - للمسعودى .

أما أوروبا الشرقية الشمالية فلم تكن بأحسن حالا، أو أوفر حظاً من أوروبا الغربية حيث كانت الأولى تعيش في همجية مطلقة، وتاريخ روسيا في القرن التاسع الميلادي لم يكن قد بدأ، وكانت أقطارها الواسعة مسرحاً لقبائل من الصقالبة، يتسلط التتار عليها، ويسومونها سوء العذاب، ودامت أيام الجهالة في روسيا إلى ما بعد ذلك بقرون، ومما يتعجب منه أن شبت فيها حرب أهلية بين السكان، كان سببها الاختلاف في عدد الأصابع التي يجب استعمالها في إشارة الصليب، ولم تتخلص روسيا من قيود الجهل إلا في القرن الثامن عشر على يد مصلحها بطرس الأكبر^(١).

وقد طال عهد الجهالة في أوروبا، وتعمقت جذوره فيها حتى لم يعد أهلها يشعرون بما هم فيه من الهمجية والتوحش.

وفي القرن الثاني عشر أحست بعض العقول المستنيرة بوجود التخلص من الجهل المتراكم، وطرقوا لأجل هذا أبواب العرب، وهم أرباب الفكر في العالم آنذاك . وقد وصل علم العرب إلى أوروبا عن طريق جزيرة صقلية، وإيطاليا، والأندلس والشام.

ومن الجدير بالذكر أن الأسبان أحبوا العرب لما رأوه من فوارق شاسعة بين المدنية الإسلامية العربية، وما كان عليه حكاهم السابقين من الجهل والتخلف، وقد أخذوا يتأثرون بما كان لدى حكاهم من المسلمين، وقبل إنتهاء قرن واحد من الحكم الإسلامي لإسبانيا، كانت قد أخصبت المزارع في أسبانيا، واتصل العمران، وتزاحم الناس بالمناكب في المدن، وأمست (قرطبة) التي أنشأها المسلمون تُنار بالمصابيح ليلا، ويستضيئ الناس بنورها إلى مسافات بعيدة .

وتُعدُّ قرطبة أول مدينة في العالم كان لها ذلك، وقد بلغ سكانها المليون من الأسبان المسلمين، وبلغ عدد دورها « مائتي ألف دار » ، وعدد قصورها (ثمانين ألفاً ، أما مساجدها فقد بلغت ألفاً وستمائة^(٢) .

وقد طبق المسلمون العلم على الصناعة والزراعة حتى أن الأسبان مازالوا يعيشون إلى اليوم على السدود التي أقامها العرب والتي يفضلها جرت المياه إلى كل أسبانيا تحمل الخصب والتماء والخير بما نفع أوروبا بعد ذلك . حتى أصبح من المتعذر على المرء أن يستقصى جهود العرب في تغيير الأندلس، وتنوير أوروبا بفضل عظيم هندستهم، وإبداعهم فيما شيدوه من القصور والمدن، وقد أدخلت صناعاتهم إلى

(١) أصول الشرائع لبنتام .

(٢) تاريخ الحضارة الإسلامية .

أوروبا ما لم يكن معروفًا فيها وليس لأهلها عهد بمثله من قبل: مع ما نشره فيها من العلوم والفنون والآداب .

وقد أنشأ العرب في (بالرم) عاصمة صقلية أول مدرسة للطب لم يعهد مثلها في جميع أوروبا، وقد أنشئت جميع مدارس الطب في الغرب بعد إنشاء مدرسة صقلية بأعوام .

هذا وقد تأثر الصليبيون الأوروبيون بحضارة المسلمين في بلاد المشرق أثناء وجودهم بالديار العربية في فترات الحملات الصليبية، ونقلوا إلى بلادهم الكثير من مظاهر تلك الحضارة .

وأخذت أوروبا عن العرب كل شيء (الطب، العمارة، الهندسة، التاريخ، الجغرافيا، فنون الزراعة، علوم الفلك: الرياح، البحار) ولم تكتفى بمجرد الإقتباس أو الاستنفاع بالمتاح، بل راحت تطور وتطور، وتبتكر وتعديل، وتضيف وتحذف، حتى نجحت في تذليل الصعاب في حياتنا نحن، بل وفي ترفيه الحياة ذاتها، وتيسيرها، وجعلها سلسلة ممتعة، وجعلت كل شيء قريباً وسهلاً بحيث أصبح في متناول الإنسان أن يجد الماء المشحون في عز الحر، وبضغطة زر يمكنه تسخين الهواء في عز الشتاء، كما أصبح في متناول يده أن يرفع سماعة التليفون ليتحدث إلى آخر في أمريكا أو الهند في البحر أو الجو أو على الأرض سواء في ذلك، أو بضغطة زر آخر يرسل رسالة مكتوبة عبر الفاكس، ويتلقى الرد عليها في الحال، وكذلك يمكنه أن يحمل في جيبه سنتراً كاملاً لا يتعدى حجم إصبعي اليد الواحدة، ليخاطب به أي إنسان في أي مكان في العالم، وأن يراه في التو والحين عبر شاشة تليفونه المحمول (الموبايل) وفيه كذلك إرسال واستقبال الرسائل، والبريد الإلكتروني، بل والجديد من نماذجه الآن (يحدد القبلة للمصلين) .

ثم انظر إلى هذا الحاسب الآلي (الكمبيوتر) الذي يحفظ في ذاكرته كل ما يُملى عليه، حتى كاد أن يلغى السجلات اليدوية في مختلف المصالح والدواوين، وقفز بعيداً حتى تم استخدامه في إدارة المصانع، وتوجيه الطائرات والتحكم في الضواريخ، وإدارة الحروب والعمليات العسكرية، كما يمكن أن يتسع لدوائر معارف كاملة في كثير من فروع العلم والمعرفة، كما يُغنى مستخدميه عن أجهزة الفيديو، والمسجلات لإحتوائه على برامج تشغيل تحمل محل هذه الأجهزة، فضلاً عن إمكانياته الهائلة في إحضار العالم بين يديك بمجرد نقرة على الفأرة (mouse) حيث يمكنك استدعاء أي جريدة أو مجلة لحظة إصدارها، كما يمكنك قراءة الإصدارات السابقة من

تلك المجالات والجرائد من خلال الأرشيف الخاص والمعروض أمامك على الشاشة، ويحمل هذا الإختراع العجيب مفاتيح كل شيء: الحلال والحرام، الأدب وقلة الأدب، المباح والمنكر - كل شيء موجود - كل شيء مباح كل شيء أمامك: المواقع الإسلامية، والعلمية والثقافية، والأدبية، والجنسية بالآلاف. أنت فقط عليك الضغط على الماوس لترى أو تفعل أى شيء، ما يطيب لك أو ما يسئ إليك.

كما أصبح بمقدور الإنسان الضغط على زر آخر ليُعرف أخبار العالم، أو أن يأتي بفرقة موسيقية تغنى لك وترقص على شاشات التليفزيون، كما يمكن مشاهدة المسابقات الرياضية مباشرة على الهواء فى كل بقاع الدنيا بواسطة الأقمار الصناعية التى تنقل كذلك الأخبار والأحداث لحظة وقوعها بالصوت والصورة من كل أقطار الدنيا، ومختلف كواكبها.

وهكذا استطاع الإنسان الغربى أن يعيش حياته بطولها وعرضها، كما يعن له ويطيب، وقد استطاع أن يتعمق فى معيشتة، وأن يستمتع بملذاتها، واستغلال إمكاناتها، وتكريس ثروتها.

وعلى الجانب الآخر فقد تخلف الركب العربى والإسلامى عن مواكبة التطورات والإبداعات والإختراعات، وباتوا مستهلكين لصناعات الغرب، ومنتجاته الخبيثة غير قليل من مجموع دول العالم الإسلامى تأتى مصر فى مقدمتهم ثم العراق - قبل الاحتلال - وإيران - والباكستان - وماليزيا .

أما العراق فقد أحرز تقدماً هائلاً فى صناعته العلمية والعسكرية، وبذل بجهدا حثيثا وجبارا فى مجالات أبحاثه العلمية والتقنية حتى تمكن من إنتاج صاروخ يصل مداه إلى تل أبيب وبإمكانه حمل أسلحة دمار شامل (كيميائية، وبيولوجية) وهو الأمر الذى اعتبرته الولايات المتحدة الأمريكية خطراً على إسرائيل، وبالتالي فإنه يهدد مصالحها الاستراتيجية فى المنطقة والعالم، فتآمر عليه المتآمرون (بريطانيا، أمريكا) وبعض الجنسيات الأخرى حتى سقطت بغداد فى التاسع من إبريل عام ٢٠٠٣م تحت المجنزرات الأمريكية والبريطانية، وتحاك الآن مؤامرات فى الخنادق ضد كل العواصم العربية والإسلامية بلا استثناء^(١).

وكان لسان حبال الغرب ينطق بنيته الجادة وعزمه الأكيد على إفساد، أو وأد أى محاولة عربية أو إسلامية للنهوض والتقدم، ونسف كل المحاولات الجادة لإعادة بناء الأطلال.

(١) انظر كتابنا وحيد القرن ورياح التغيير .

يأتى هذا فى الوقت الذى فيه يلهث التاريخ، وتهول فيه الأحداث، ويتقارب معه الزمان فى إيقاع سريع. ولعنا نلاحظ أن ما بين عصر الفضاء والكمبيوتر والهندسة الوراثية غير سنوات قليلة لا تتجاوز أصابع اليد الواحدة ولعنا نرقب كذلك أن ما بين اختراع وآخر لا يزيد عن أيام قليلة.

والغريب هو استسلام المسلمين المُهين لحال العجز والتخلف، الذى باتوا فيه منذ آمنوا بسياسة التحليلية والقطرية والدولية، على الرغم من مقومات الوحدة (الطبيعية والجغرافية، والثقافية، واللغوية، والتاريخية) هذا بخلاف الأغلبية الدينية بين الكثير من دول العالم الإسلامى خاصة العربى منه، على الرغم من الواقع على رؤوس الأشهاد من وجود دولة قارة فى أقصى الشرق هى (استراليا)، وقارة دولة عند أقصى الغرب هى (أمريكا) التى تتكون من خمسين ولاية تجمعت فى اتحاد فيدرالى، واستطاعت قبل انقضاء القرن الرابع على تأسيسها أن تنفرد بحكم العالم، وأن تتربع على عرشه.

بينما هناك ٤٧ (سبعاً وأربعين) دولة إسلامية، أو هى حُسبت على الإسلام كَمَا لا كيفاً، اكتفت حميعها بمصمصة الشفاه، واللطم على الحدود، وضرب الفخذين باليدين .

وتقول الإحصاءات أن ٨٥٪^(١) من المال العربى يذهب فى استثمارات داخل أوروبا، وأمريكا، لإنعاش إقتصاديات هذه الدول، ويبقى ١٥٪ من المال العربى تخطط إسرائيل لاحتوائه فى مشروع شيمون بيريز المعروف (السوق الشرق أوسطية). تلك هى خريطة لحال القوم الذين ظلموا أنفسهم بعد أن حملوا المشاغل للآخرين .

ثانياً : خطر اسمه الإسلام

لقد أصيب الكفار وأعدوانهم بالفزع والخوف، وتولد فى قلوبهم الرعب من الوحدة الإسلامية التى جمعت بين المسلمين، والتى حملت إليهم مشاغل الحضارة والنور والفكر والثقافة، فراحوا يتآمرون، ويكيدون كيذا كباراً لمشاغلة المسلمين وقتالهم، والهجوم عليهم فى ديارهم لأنهم يرون الإسلام خطراً على وجودهم، وما هذه غير (هوجة) يثيرها الغرب الصليبي مدفوعاً من الصهيونية العالمية أو متعاوناً معها، كل يوم عن خطر يسمونه الإسلام والمسلمين .

(١) الطريق إلى جهنم ص ٣٨ .

وبالنظرة الموضوعية المجردة إلى الواقع الإسلامي، لا نرى خطراً مرتقياً من أى نوع أو من أى حجم، سواء فى الحاضر أو فى المستقبل القريب من تلك الدول الإسلامية المنكوبة.

وما نرى حولنا سوى دول مفككة لا يجمعها رابط، ولا يضمها لواء، بعضها تابع، وبعضها عميل، وبعضها محتل، وبعضها يضرب بعضها، وأكثرها يعيش تحت خط الجوع، ويتسول خُبْزَه، وكلها إسلامية بالإسم فقط، علمانية الهوى، لم يبق من أصوليتها إلا لحي مطولة، وجلاليب مرسله، ومسابح مزوقة، ومصاحف منمقة، وأكثرها شكليات غير ذات موضوع، وتقاليد غير ذات مضمون.

والقابضون على دينهم من هذا الجمع المختلف يمشون فى حالهم إلى جوار الحائط لا يرازعون أحداً ولا يدرى بهم أحد، وهم قلة من الراكعين الساجدين فى الخفاء، لا يرجون من الدنيا إلا وجه ربهم ولا دخل لهم بأمريكا ولا بالمانيا ولا بإيطاليا ولا بأسبانيا - أين هو إذا ذلك الخطر الوهمى، الذى راحوا يجمعون قواهم له، ويُشمرون عن سواعدهم، ويربطون جاشهم حتى لا تقوم الوحدة الإسلامية من جديد فتعود كما كانت، فتخلص العالم من سيطرتهم ورأسماليتهن، وتُطهر الأرض من علمانيتهن وتملاً الأرض عدلاً بعد أن مُلئت جوراً.

ولقد نصت تقاريرهم السريّة على أقوالهم التى ذكتها أفعالهم، منها ما قال لورانس براون «إذا اتحد المسلمون فى امبراطورية عربية أمكن أن يصبحوا لعنة على العالم وخطراً، أما إذا ظلوا متفرقين فإنهم حينئذ يظلون بلا قوة ولا تأثير»^(١).

ومن التقارير السرية التى نشرت أخيراً، والتى كشفت عن عداء الغرب النصرانى للوحدة الإسلامية تقرير وزير المستعمرات البريطانىة (أورمس غو) الذى جاء فيه «إن الحرب علمتنا أن الوحدة الإسلامية هى الخطر الأعظم الذى ينبغى على الإمبراطورية أن تحذره وتحاربه، وليست إنجلترا وحدها هى التى تلتزم بذلك بل فرنسا أيضاً، ومن دواعى فرحتنا أن الخلافة الإسلامية زالت، لقد ذهب، ونتمنى أن يكون ذلك إلى غير رجعة، إن سياستنا تهدف دائماً وأبداً إلى منع الوحدة الإسلامية، أو التضامن الإسلامى، ويجب أن تبقى هذه السياسة كذلك»^(٢).

لقد نطقت ألسنتهم بالكفر مما امتلأت به صدورهم من حقد مرير، وغل كامن على الإسلام وأهله، لأنهم يرونه الجدار الوحيد أمام سياستهم الإستعمارية الرامية إلى

(١) احذروا الأساليب الحديثة فى مواجهة الإسلام ص ١٣٥ سعد الدين السيد صالح.

(٢) المرجع السابق.

إحتلال العالم، وفي ذلك قال لورانس براون (إن الإسلام هو الجدار الوحيد في وجه الإستعمار)^(١).

كما يروونه جداراً صلباً يحول دون انتشار المسيحية، وتمكين الإستعمار من العالم الإسلامي، وفي هذا السياق قال أحد المبشرين (إن القوة الكامنة في الإسلام هي التي وقفت سداً منيعاً في وجه انتشار المسيحية، وهي التي أخضعت البلاد التي كانت خاضعةً للنصرانية)^(٢).

وجاء في تقرير لأشعيا بومان نشرته مجلة العالم الإسلامي التبشيرية (إن شيئاً من الخوف يجب أن يسيطر على العالم الغربي من الإسلام، ولهذا الخوف أسباب، منها أن الإسلام منذ ظهر في مكة لم يضعف عددياً، بل أتباعه يزدادون بإستمرار، ومن أسباب الخوف أن هذا الدين من أركانه الجهاد)^(٣).

إنهم يخافون من العملاق، ويرهبون هذا الدين القيم الذي يخالف عقيدتهم، ويغايير معتقداتهم، ويبطل أفكارهم، ويُفسد طموحاتهم، وذلك لأنه الدين الذي لا يُقرُّ مبدأ السيطرة، ولا فرض الرأي بالقوة على الآخرين. فنبيينا ﷺ لم يقاتل إلا من قاتلوه وما حارب إلا من حاربوه واضطهدوه.

كما يحمل ديننا الحنيف هموم الحلال والحرام، ويشرح منهج الدنيا ويبين طريق الآخرة.

ولا حرج إذاً في التأكيد على أن سرّ هذا العداً المستحکم الذي يناصبونه المسلمين أن يكون دافعه الحقيقي الحقد الكامن والحسد والرغبة في أن يجرونا إلى هاويتهم، لنكتوى بمصير واحد، حيث يصبح المسلم علمانياً، حسبه للخلاص من المؤامرات والمكائد أن يصير علمانياً ويتمرد على دينه بالتطاول والنكران.

فالمنهج العلماني يقوم في الأصل على أن تفعل ما يحلو لك مادمت لا تؤذي غيرك - ليس أمامك إلا هذه الدنيا فخذ منها أقصى ما تستطيع، واستمتع بجسمك، وأشبع رغباتك دون وسواس ما دمت قد فُزت برضا الآخرين - وللشواذ في هذه الحضارة حقوق مثل الأسوياء، ولهم نواديهم ولهم حق ترويج منكراتهم والدعوة لها، والأقمار الصناعية تذيب تلك المنكرات علانية، وتوصلها إلى كل صاحب «دش» في بيته وفي غرفة نومه، وتقوم بذلك دول كبرى، وشركات كبرى، وقد أغلقوا على

(١) التبشير والإستعمار ص ١٨٤ - الخالدي وفروخ - ط الرابعة .

(٢) الإسلام والتنمية الاقتصادية ص ٥٦٠ جاك أوستري .

(٣) التبشير والإستعمار ص ١٢١ .

الأديان أبواب الكنائس والمساجد حتى لا تُعكّر صفوهم - أمّا الله - فهو فكرة غير مطروحة عندهم، والغيب لا وجود له، ومعنى هذا أنهم هم الذين يفرضون منهجهم، وأسلوب حياتهم علينا بالصحيفة والكتاب والسينما والمسرح والتليفزيون والأقمار الصناعية، وهم الذين أعلنوا علينا الحرب ليس فقط بالتصفية الجسدية، والمذابح، وإنما بالتصفيات الفكرية والعقائدية، والغزو الثقافي^(١).

﴿وَلَا يَزَالُونَ يَقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾

[البقرة : ٢١٧]

* * *

ثالثاً : إنهيار الخلافة الإسلامية

عندما انهارت سلطنة (قونية) بوفاة سلطانها «علاء الدين كيقابد الثالث» سنة ١٣٠٧ من الميلاد، أخذ عثمان (١٢٩٩ - ١٣٢٦م) ابن «أرطغرل» أحد زعماء القبائل التركية الكبيرة التي استقلت في آسيا الصغرى عند خراسان، وقد سُميت الدولة العثمانية باسمه.

وقد أخذ عثمان وأتباعه في التوسع في سرعة تَسْتَرعى الإنتباه على حساب تلك الدولة المنهارة، وبعد وفاته خلفه ابنه الأكبر (أورخان) ٣٣ سنة (١٣٢٦ : ١٣٥٩م) الذي استطاع دخول (نيقية) إسك الحالية سنة ١٣٢٩م .

ثم قام سليمان الابن الأكبر للسلطان أورخان بالإستيلاء على شبه جزيرة «جاليبولي» في ١٣٥٤م، وهي أول أرض يستولى عليها العثمانيون، ومات سليمان في ١٣٥٨م قبل والده أورخان الذي توفي في العام التالي مباشرة ١٣٥٩م .

ثم آل العرش العثماني للسلطان مراد الأول الذي استولى على (سالونيك) وأدرنه في ١٣٦١م، ووصل إلى الشمال الآسيوي، وجَرَهُ ذلك للإشتباك في حروب ضد «بلغاريا والبوسنة والصرّب»، ونجح العثمانيون في إخضاعهم، ثم دارت معركة بين الصرب والعثمانيين خَرَّ فيها ملك الصرب قتيلاً، ثم قُتل مراد هو الآخر على يد أحد نبلاء الصرب .

وآل العرش العثماني إلى السلطان سليم الأول الذي كانت لديه الرغبة الملحة في السيادة على العالم الإسلامي، تمثلت هذه الرغبة في التحرش ضد الفرس (الشيعة) في عصر الشاه «إسماعيل الصفوي»، ثم أحاك المؤامرات ضد أرض الحجاز لفرض سيطرته على مكة . ودخوله مصر، وقد تحقق له ما أراد .

(١) الطريق إلى جهنم ص ٦٧ بتصرف .

وتجدر الإشارة إلى أن مراد الأول عندما تقدم إلى الشمال الآسيوي وتمكن من إخضاع الصرب، وبلغاريا، والبوسنة، بدأ عمليا في تطبيق الشريعة الإسلامية من غير تدرج على شعوب لم تدرى بعد ما الإسلام، باستثناء شعب البوسنة، ونفذ أحكام الشريعة كاملة في تحريم الخمر كما أنه رجم الزناة... إلخ^(١).

وعلى جانب آخر - كان تعاون « الشريف حسين بن علي » المضطلع بمهام شرافة مكة المكرمة مع الإنجليز ضد تركيا على أمل مساعدته في الانفصال عن الخلافة التركية ومعاونته في تحقيق حلمه الكبير في إقامة خلافة إسلامية عربية، بينما كان يحظى الشريف حسين بتأييد كبير ودعم مطلق من خديوى مصر « عباس حلمي الثاني » الذي تزعم مبكرا فكرة الصراع ضد الإستعمار، وانحاز الخديوى مع مصطفى كامل، ومحمد فريد في الثورة على الإستعمار الإنجليزي، وانضمت لهم جموع الشعب.

الأمر الذي اعتبرته بريطانيا خطرا عليها في مصر والحجاز، فقامت بخلعها في ١٩/١٢/١٩١٤ م، وعينت « حسين كامل » ابن اسماعيل سلطانا على مصر ليصبح العوبة في يدها ليتحقق للإنجليز أمرين هائلين بالضرورة:
أما أحدهما: فهو ضمان توقف مصدر الدعم المتدفق للشريف حسين، وتخفيفه
وأما الآخر: فهو إجهاض الثورة في مصر.

ومن جانب واحد أعلن الشريف حسين بن علي الإستقلال العربي عن تركيا في ١٩١٦/٦ م، وبدأت قبائل الحجاز في مهاجمة الحامية التركية في مكة بنيران بنادقها في العاشر من يونيو، وقد تمكن الثوار العرب في ١٩١٦/٧/٩ م من استلام مكة المكرمة من الأتراك بعد أن قدمت بريطانيا دعما لقوات الشريف حسين قوامه سرّيتى مدفعية، وقد سقطت جدّة بعد أسبوع، وسقطت رابغ، وقُنفده، في سبتمبر من العام ذاته.

أما ينبع فقد حاصرَ البريطانيون القوة الألمانية الموجودة بها واضطروها للإستسلام.

وفي إطار المواجهة بين الحلفاء والمحور، وفي حيز الحرب التركية البريطانية المباشرة تمكن الجنرال (أدموند النبي) من احتلال القدس في ١٩١٧/٩/٩ م، ثم تمكن من أن يوقع هزيمة ساحقة بالأتراك عند (تل المتسلم) بشمال فلسطين، وقد أنهت هذه المعركة الوجود الفعلي للإمبراطورية العثمانية، وقد أعلنت الإمبراطورية العثمانية استسلامها في الحرب العالمية الأولى بعد هزيمتها على كل الجبهات في ١٩١٨/١٠/٢٩ م.

(١) مصر في عهد المماليك والعثمانيين بتصرف / د.١ . عبدالعزيز محمود عبدالدايم .

وقد تقدم عبد الله بن الشريف حسين ليتولى إمارة شرق الأردن، وتمكن أخوه « فيصل الأول » من الجلوس على عرش العراق، وقد حقق الشريف حسين بعض النجاحات مُستغلاً المعطيات التي منحتها إياه المستجدات الدولية الراهنة.

استشعرت بريطانيا الخطر العربي المتنامي الرامى إلى إقامة خلافة إسلامية عربية، فتآمر الإنجليز ضد الشريف حسين من خلال تقديم حكومة الهند الإنجليزية كافة أشكال الدعم وأخطر الإمدادات وكل صنوف العون والمؤن للقادم من البادية « عبد العزيز آل سعود » الذى تمكن من بسط نفوذه على الحجاز، ومن الإطاحة بالشريف حسين الذى فر إلى الخارج، واعترفت بريطانيا بإبن سعود « ملكاً » على الحجاز فى اتفاقية جدة سنة ١٩٢٧م.

تلك فى مجموعها العوامل التى أثرت وبشكل كبير ومباشر فى انهيار الخلافة الإسلامية التركية حيث تعرضت لحركات تزمرو وتمرد داخلية شديدة قادها الصرب وأعوانهم، وقد ترك ذلك ميراثاً هائلاً من الحقد المرير داخل صدور الصرب يحملونه ضد كل ما هو إسلامى حتى اليوم ولعل أحداث البوسنة والهرسك تنطق شاهدة على ما نقول، كما أن العنصر العربى لعب دوراً خطيراً فى استدعاء واستعداد الإنجليز ضد تركيا، ناهيك أن الرفض الأوروبى العارم والمطلق لفكرة وجود دولة إسلامية سنية داخل أوروبا كان على أشده ولم يزل.

وهكذا إنهارت الخلافة الإسلامية العثمانية، وتبخرت أحلام الشريف حسين بن على فى إقامة خلافة إسلامية عربية بعد أن قضى تماماً على آخر خلافة إسلامية فى التاريخ.

وبالقضاء على الخلافة الإسلامية التى كانت رغم بُعدها حقاً عن روح الإسلام، إلا أن الأعداء كانوا يخشونها ويخشون أكثر أن تتحول هذه الخلافة من خلافة شكلية إلى خلافة حقيقية تهددهم بالخطر.

وكانت فرصتهم الذهبية التى عملوا لها طوال قرن ونصف هى التى جاءتهم على طبق من ذهب بعد أن خرجت تركيا خاسرة مع حليفها ألمانيا فى الحرب العالمية الأولى، حيث دخلت الجيوش الإنجليزية، واليونانية، والإيطالية، والفرنسية أراضي الدولة العثمانية (الخلافة المنهارة) وسيطرت على جميع أراضيها ومنها العاصمة « استانبول ».

ووقعت الواقعة مع البدء فى مفاوضات مؤتمر (لوزان) لعقد صلح بين المتحاربين، حيث اشترطت إنجلترا على تركيا أنها لن تنسحب من أراضيها إلا بعد تنفيذ الشروط التالية:

١- إلغاء الخلافة الإسلامية، وطرد الخليفة من تركيا ومصادرة أمواله.

٢- أن تتعهد تركيا بإخماد كل حركة يقوم بها أنصار الخلافة.

٣- أن تقطع تركيا صلتها بالعالم الإسلامي.

وكان لبريطانيا ما أرادت في تركيا، وسلّم الأتراك للمطالب الإنجليزي.

وانعقد مجلس العموم البريطانى بعد استقلال تركيا، وفيه وقف (كرزون) وزير الخارجية البريطانى يستعرض ما جرى في تركيا، احتج بعض النواب الإنجليزي بعنف عليه، واستغربوا وسألوا متهمين كيف اعترفت إنجلترا باستقلال تركيا التي يمكن أن تجمع حولها الدول الإسلامية مرة أخرى وتهجم على الغرب؟ فاجاب كرزون: لقد قضينا على تركيا التي لن تقوم لها قائمة بعد اليوم لأننا قضينا على قوتها المتمثلة في أمرين « الإسلام، والخلافة » فصَفَّقَ النواب، وسكتت المعارضة^(١).

وهكذا تحقق لهؤلاء على الأرض نصراً جديداً يضاف إلى رصيد إنتصاراتهم في سجل التاريخ الطويل الحافل بالصراع الدائم والمتجددة الذي يحوى كل صنوف الصراع بين الحضارات. ليرضى أطماعهم المشهودة في بقاع الأرض بعد أن حقق لهم السفاح اليهودى التركى (مصطفى كمال أتاتورك) أغلى أمانيتهم في إلغاء الخلافة الإسلامية في تركيا، وانتهى بذلك الوجود الإسلامى في هذه الديار التي كانت معقلاً للمسلمين بعد حوار دام طويلاً استخدمت فيه كل أسنة الديابات .

وما أن تم الإعلان عن إنهاء الخلافة وقيام الجمهورية في تركيا حتى تسابق الصرب والبلغار في الخروج من دين الله أفواجاً، ووقعت معارك طاحنة، ومجازر مروعة بين المسلمين من جانب والصرب البلغار من جانب آخر، وقع فيها مئات الآلاف من المسلمين صرعى ومشردين ضحايا لخنازير الدولتين الذين تدعمهم الرغبة في الإنتقام من الخلافة الإسلامية التي أكرهتهم على الدخول في دين الله عن غير فهم لصحيح الدين، وتمولهم الصهيونية العالمية التي لن تتوان في توظيف كل الأحداث وإن صغرت لمحاربة الإسلام والقضاء على المسلمين.

تزايدت حدة الانفجار العدائى الصربى البلغارى ضد المسلمين فهدموا المساجد أو أحرقوها، ونكلوا بالمسلمين تنكيلاً.

ولازال العداء مستحكماً، والشر مستفحلاً فى الوسط الأوروبى بعد المؤامرة الدولية والإقليمية الكبرى والتي مارسها فى العلن كل من (كرواتيا، والجبل الأسود،

(١) نقلا عن: كيف هدمت الخلافة ص ٩٠، والأرض والشعب ص ٤٦ مجلد أول.

والصرب) ضد الدولة البوسنية المسلمة، حتى تهدمت ديارها، وتشرذ شعبها وقد لقي الثالث الصليبي المذكور كافة وسائل الدعم المشروعة وغير المشروعة، المحرمة وغير المحرمة من خلال الدعم الهائل، والمدد الكبير الذي قدمه كل من «ألمانيا، وبريطانيا، واليونان، والفاتيكان، وإيطاليا» بخلاف التدخل الروسي المباشر - الرامون كلهم بسهام من نار في صدور كل ما هو إسلامي سواء أكان أوروبا أم غير أوروبا.

وقد تعرض المسلمون في الوسط الأوروبي في المنطقة التي كانت تخضع لأعمال السيادة الإسلامية في زمن الخلافة العثمانية لعمليات إبادة جماعية منظمة وعلى فترات مختلفة مروراً بمراحل ثلاث، قدمنا لها تفصيلاً دقيقاً وتحليلاً وافياً مستوفياً للأحداث الهمجية، والهجمات الشرسة في مراحلها المختلفة^(١).

ولم ينته الأمر عند هذا الحد بل تسابق الغرب الصليبي في منافسة محمومة للتصارع حول التهام الوليمة العثمانية مترامية الأطراف في العالم العربي والسطو على التركة (البلاد العربية) كاملة، وسرعان ما اتفق الأعداء فيما بينهم، فتوصلوا إلى صيغة إتفاق لتقسيم الغنيمة بدلا من التصارع عليها كما سبق أن بينا وكما سيرد منه «حين المقام».

ووقع العالم الإسلامي كله تحت وطأة الإستعمار في العصر الحديث من السنغال غربا إلى أندونيسيا شرقا. وهكذا إنهارت آخر خلافة إسلامية في التاريخ.

* * *

رابعاً : (أ) الصليبية بين الشرقين - الأقصى، والأوسط

يتمتع الشرق الأوسط بموقع جغرافي فريد ومتميز بخصائصه الاستراتيجية التي تحدد ملامحه بين قارات العالم وأبعاده وزواياه، بما مكّنه من التحكم في التجارة الدولية عامة، والإمساك بنواصي الطرق التجارية ذاتها. حيث كانت التجارة بين آسيا وأوروبا عبر الشرق الأوسط تسير انطلاقاً من طريقين رئيسيين:

أحدهما: الطريق البري: حيث الموانئ السورية واللبنانية، والفلسطينية، على الساحل الشرقي للمتوسط، ومنها عبر صحراء سوزيا، فالعراق، وإيران، ووسط آسيا، ثم تنطلق إلى وجهات مختلفة، ومنها ما يتجه إلى الخليج الفارسي (آنذاك) حيث يتم تحميل سفن أخرى لنقل تلك التجارة إلى آسيا الجنوبية، والشرقية والجنوبية الشرقية.

(١) انظر - المؤامرة الكبرى على العروبة والإسلام والإنسانية عبر مراحل التاريخ / للمؤلف.

الثانى: وهو ما عُرف بالطريق البحرى لأنه لا يتخلله إلا القليل من اليابسة، حيث كانت التجارة الأوروبية تأتي إلى شمال مصر عند ما تعرف الآن (بورسعيد) ثم يتم نقل تلك التجارة بالعربات إلى البحر الأحمر، لتستأنف رحلاتها البحرية بواسطة بواخر أخرى إلى مناطق آسيا، أما هذه المنطقة القليلة من اليابسة - فهى التى نفذت فيها فرنسا مشروع حفر قناة السويس الحالية للإستعاضة عن الرحلة البرية التى تعترض طريق المرحلة البحرية بعد ربط البحرين (الأحمر، والمتوسط) عن طريق القناة الجديدة التى حفرها المصريون بأظافرهم وقدموا لها أرواحهم الزكية حيث أجبرهم الفرنجة على أعمال الحفر قهراً بنظام السخرة ومات منهم عشرات الآلاف لخدمة المشاريع الإستعمارية الأجنبية فى المنطقة

ومن ثم يمكن القول أن منطقة الشرق الأوسط تحكمت وإلى حد كبير وبعيد فى التجارة الدولية وممراتها وطرقها، وحصلت منها على فوائد عظيمة من أعمال النقل، ورسوم العبور، والضرائب - نتيجة لعبور هذه التجارة عبر أراضيها .

وعندما حدثت الأزمات الصعبة، وبرزت الصعوبات الجسام بين المسلمين فى أوطانهم، وخصوصاً منطقة الشرق الأوسط، وبين أوروبا الصليبية من الجانب الآخر بسبب الإجتياح الصليبي لبعض المناطق مثل سوريا، ومصر، والشمال الإفريقي، والذى دارت بسببه صراعات دموية، ومصادمات مسلحة، دامت حوالى القرنين من الزمان، وقد انتهت بكسر شوكة الصليبيين، وانتصار الإرادة الإسلامية، وتحررت على إثرها معظم البلدان العربية، إلا أن هذا المسلك العدائى الصليبي ترك جراحاً عميقة مريرة فى نفوس أبناء الشرق مجتمعين .

وعندما بدأ الإجتياح الصليبي المذكور، كانت البرتغال وأسبانيا تقودان حركة صليبية ضد الإسلام والمسلمين فى كل مكان، وخاصة فيما يحرم أبناء الشرق الأوسط من مواردهم الهائلة عن طريق مرور التجارة من أراضيهم، فضلاً عن البحث عن سوق أخرى بديلة وجديدة عن الشرق .

وكانت تلك بداية محاولات التحوّل الأوروبى الصليبي الإستعماري الصريح نحو غرب إفريقيا، والذى بدأه البرتغاليون بالوصول إلى السنغال على ساحل المحيط الهادى، ثم تطورت التطلعات البرتغالية حتى وصلت بتجاريتها، وبعثاتها التبشيرية إلى جنوب القارة عند منطقة يقال لها (DIAS) تقع عند رأس الرجاء الصالح .

وقد شجع ذلك الإنجاز (فاسكودى جاما) البحار والمستكشف الجغرافى البرتغالى على مزيد من التطلعات فتقدم شرقاً حتى وصل إلى الهند، ومنها انطلق نحو جزر الهند الشرقية .

وبهذا تعرضت مصر لخسارة عظيمة لفقدانها دور الوسيط الذي كانت تلعبه في التجارة الدولية آنذاك، فاتجهت القيادة المصرية آنذاك نحو عمل جماعي بالتعاون مع موانئ البحر المتوسط، والهند، بمشاركة بعض الأساطيل الهندية لمحاربة البرتغال وهزيمتها، والتقى الجمعان، ودارت معركة كبيرة بين مصر والبرتغال عند منطقة يقال لها (ديو) وقد انتهت بهزيمة القوات المصرية فيما عرفت معركة (ديو عام ١٥٠٩م)^(١).

وقد تمكنت البرتغال بعد أن كسبت تلك المعركة من السيطرة على هذا الطريق نحو قرن من الزمان، وأصبحت بذلك سيدة التجارة العالمية تقريبا بعد أن احتلت (مسقط، ومطرح) من سلطنة عمان وبعضا من مناطق الخليج العربي وأخر من مناطق شرقي آسيا.

وبهذا أصبحت العاصمة البرتغالية (لشبونة) مركزا محوريا للحركة التجارية الأوروبية، وقبلت التجار الأوروبيين الذين وجدوا كل تجارتهم فيها يسر وسهولة، في بديل أيسر وأرخص يعرضهم عن شراء أو بيع تجارتهم عبر الشرق الأوسط، وهو كذلك بديل آمن كونه يفادي أعمال القرصنة البحرية وسوء الأحوال الجوية التي كانت تُفقدُهم الكثير من تجارتهم أثناء رحلاتهم البحرية الطويلة، فضلا عن توفير الوقت والنفقات والجهد وتمنع الأزمات.

* * *

(ب) عبور المتوسط إلى الشام

بعد أن تمزقت الأمة الإسلامية، وسلكت مسالك القُطرية، والتحليلية على نحو ما ذكرنا سابقا، بدأت أوروبا تعمل مباشرة نحو تحرير أراضيها، وطرد الفاتحين الإسلاميين منها، ساعدهم على ذلك تفوقها في المجالات العسكرية، والصناعات الحربية والمدنية على السواء بفضل قيام عصر النهضة الحديثة الذي تمكنت بفضلله أوروبا من حيازة أسباب الرقي، والتقدم، في العلوم، والفنون. وذلك على حساب النجم الإسلامي الذي أخذ في الأفول منذ أن تحولت التجارة إلى طريق رأس الرجاء الصالح الذي أضّر كثيرا بكل من مصر، والشام، والعراق.

وبدأت مع هذه التطورات الهائلة إيجابية النتائج غربا، سلبية الآثار شرقا تتابع موجات الحملات الصليبية على المشرق العربي حتى تمكن الصليبيون من تأسيس أربع ممالك صليبية، ودانت لهم الأمور بعض الوقت، حتى تمكن (إليغازي الأرتقى) صاحب حصن ماردين وحيفا من إبادة جيوش الصليبيين إبادة تامة في إمارات

(١) التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية ج ٨ ص ٤٩٠.

أنطاكية، والرها، وبيت المقدس . فى معركة (سهل الدماء) قرب قنسرين فى ٢٨/٦/١١١٩م، ثم تمكن القائد السلجوقى « عماد الدين زنكى » فى ١٨/٦/١١٢٨م من إنقاذ حلب من السقوط فى أيدي الصليبيين بسبب ضعف حكامها وأثناء انشغال المسلمين بقيادة زنكى بإنتراع إمارة الرها من الصليبيين التى دامت تحت حكمهم (٥٠) خمسين عاما متصلة، والتى كان باستعادتها بشير نصر نهائى على الصليبيين تمكن « ألفونسو » ملك البرتغال من إنتراع لشبونة من أيدي المسلمين فى ١١٤٤ م .

وما أن أتم عماد الدين زنكى حتى تآمروا عليه، وقتله أحد غلمانه فى ١١٤٦م وخلفه ولده نور الدين، وكان إغتيال عماد الدين زنكى مدعاة لتطورات جديدة، قام بها من تآمروا عليه وقتلوه . إذ سرعان ما انطلقت من أوروبا الحملة الصليبية الثانية بقيادة (كونراد الثالث) ملك ألمانيا، ولويس السابع ملك فرنسا، وقد انتهت بالفشل، وبعد أن أتم الله النصر على الحملة الصليبية الثانية، استطاع نورالدين أن يستولى على « حمص » وأن ينزل بالصليبيين هزيمة كبيرة فى معركة لقي فيها أمير أنطاكية الصليبي مصرعه، ثم انتزع دمشق من حاكمها الخائن المتعاون مع الصليبيين سنة ١١٥٤م، وفى ١١/٨/١١٦٤م نجح نورالدين فى استدراج الصليبيين إلى « ارتاخ » وأوقع بهم هزيمة ساحقة، وأسر الملكين الألمانى والفرنسى دفعة واحدة .

وكان نورالدين زنكى قد حاول توسيع دولته فأرسل « أسد الدين شيركوه » نائبه فى دمشق الذى قام بمحاولة فى ٤/١١٦٤م لانتزاع مصر من أيدي الفاطميين، تمكن خلالها من احتلال بلبيس، والشرقية، إلا أن الوزير الفاطمى الخائن « شاور » استنجد بملك بيت المقدس (عمورى) وحول له حق حماية مصر من « شيركوه »، فتقدم عمورى، واستولى على بلبيس فى ٤/١١/١١٦٨م وارتكب مجزرة كبرى فى حق أهلها، ثم زحف صوب القاهرة، ومارس إجراما غوغائيا جعل الوزير الخائن ينقلب على عمورى، واحترقت مدينة الفسطاط فى الصراع بينهما وطلب شاور العون من نور الدين الذى واصل فى العام ذاته، واخترق الصحراء، وتقدم إلى القاهرة، وضم جيش مصر إلى جيشه، وانسحب عمورى عائدا إلى بيت المقدس وهو يجر أذبال الخيبة والفشل سواء فى رغبته فى حكم مصر مباشرة، أو فى إعدادها للحملة الصليبية القادمة إلى مصر، والتى وصلت بالفعل فى يوليو عام ١١٦٩م وقد حاول فيها الأسطول البيزنطى حصار دمياط، ولكنه فشل وانسحب .

وبعد وفاة أسد الدين شيركوه إثر فشل الحملة الصليبية سابقة الذكر أمر الخليفة الفاطمي بتعيين (يوسف بن أيوب) المعروف (صلاح الدين) وزيراً له بدلاً من (شيركوه).

وسرعان ما أعاد صلاح الدين الأمور إلى نصابها في عام ١١٧١م، وأسقط الخلافة الفاطمية، وأمر بالدعوة للخليفة العباسي، وأعاد مصر إلى قلب أمتها واستعد للزحف العظيم المظفر إلى القدس.

وقد تمكن جيش صلاح الدين من فتح النوبة في ١١٧٢م، ثم فتح اليمن في ١١٧٤م، وبعد أن توفي نورالدين زنكي في العام ذاته تقدم صلاح الدين في العام التالي ١١٧٥م إلى الشام وانتصر على الزنكيين عند قرون حماه، وأعلن نفسه ملكاً على مصر والشام، وأقره الخليفة العباسي على ما فعله.

وبدأت جولات متواضلة من الكر والفر السريعة والمتلاحقة بين الصليبيين وأعدائهم من الخونة من جهة، وجيش صلاح الدين من جهة أخرى، وفي تلك الآونة تمكن الأتراك السلاجقة من إلحاق هزيمة ساحقة بالإمبراطورية البيزنطية التي انتهت عصر ازدهارها منذ ذلك الحين، وفي الوقت ذاته كانت معركة (تل السلطان) التي انتصر فيها صلاح الدين على التحالف الكائن بين الزنكيين والصليبيين بين (حماة، وحلب).

وفي سنة ١١٨٣م تمكن السلطان صلاح الدين الأيوبي من ضم حلب إلى مملكته بعد حصارها واستسلام حاكمها، وشرع بعدها في لم شمل الأمة استعداداً ليوم المعركة الفاصلة مع الغزاة الصليبيين، وأخذ يتجهز ويتهيأ لا يكمل ولا يفتر من الجهد المتواصل، والعمل الدؤوب (ليوم الفصل) حتى جاء الرابع من يوليو عام ١١٨٧م، فانقضت جيوش صلاح الدين للملاقاة جيوش الصليبيين التي زحفت إليه عند (تلال حطين) بالقرب من بحيرة طبرية، فضربهم ضربة قاسية قاضية تمكن بها من سحق الجيوش الصليبية في ما تعرف تاريخياً (موقعة حطين الكبرى).

واستمر في جهده وجهاده حتى استعاد بيت المقدس في ١٠/٢/١١٨٧م وحفظ دمائهم على عكس ما فعلوه هم حين دخلوا المدينة، حيث قتلوا سبعين ألف مدني في واحدة من أبشع مذابح التاريخ.

وقد سقطت المدن اللبنانية والفلسطينية في أيدي صلاح الدين الواحدة تلو الأخرى عقب انتصاره الكبير في موقعة حطين، ولم يهنا صلاح الدين بانتصاراته، فلم يمض عام ١١٨٩م حتى انطلقت من أوروبا الحملة الصليبية الكبرى الثالثة بقيادة

(ريتشارد قلب الأسد، وفيليب أغسطس) للإستيلاء على بيت المقدس، ودارت معارك عنيفة في محاور مختلفة، ولم تتمكن هذه الحملة إلا من الإستيلاء على عكا بعد حصار دام عامين، حيث استسلمت المدينة في ١٢/٧/١١٩١م، وبعد المقاومة العنيفة، والمعارك الطاحنة التي كبدت الصليبيين كثيراً من الخسائر البشرية جنح الصليبيون للسلم، ووقع معهم صلاح الدين (صلح الرملة) في ٩/١١٩٢م الموافق عام ٥٨٨هـ.

وقد توفي البطل الإسلامي الكبير، المجاهد العظيم (صلاح الدين الأيوبي) في الرابع من مارس سنة ١١٩٣م في دمشق بعد خمسة أشهر من إبرام صلح الرملة ودُفن بجوار الجامع الأموي.

ولعل الموقف البطولي للمجاهد الأسطوري صلاح الدين الذي (دوَّخَ) الصليبيين وأزل أنفهم، وكسر شوكتهم، ووضع نهاية حملاتهم على الشرق، هو الذي فسر لنا ذلك التحالف القديم بين الصهيونية والصليبية ضد الإسلام وأهله.

فبعد سقوط القدس في أيدي اليهود عام ١٩٦٧م قال (راندولف تشرشل) رئيس الوزراء البريطاني في الفترة ما بين ١٩٥١ : ١٩٥٥م لقد كان إخراج القدس من سيطرة الإسلام حلم المسيحيين واليهود على السواء، إن سرور المسيحيين لا يقل عن سرور اليهود، إن القدس قد خرجت من أيدي المسلمين، وقد أصدر الكنيست اليهودي ثلاثة قرارات بضمها إلى القدس اليهودية، ولن تعود إلى المسلمين في أية مفاوضات مقبلة ما بين المسلمين واليهود^(١).

وها هو الجنرال الفرنسي (جورو) عندما تغلب على جيش «ميسلون» خارج دمشق توجه فوراً إلى قبر صلاح الدين وركله بقدمه وقال (ها قد عدنا يا صلاح الدين)^(٢).

وتعددت الحملات الصليبية على الشرق حتى عبر الأوروبيون علنا عن جهلهم وتخلفهم حيث أرسلوا هذه المرة حملة من نوع خاص هي حملة الأطفال الصليبية الشهيرة في عام ١٢١٢م والتي انطلقت من ألمانيا وفرنسا، قوامها بضع آلاف من الأطفال دون الستة أعوام في مشهد غريب وخدمة غرض أشد غرابة - هو استعادة بيت المقدس من أيدي المسلمين، بينما الأطفال يتخطفهم الموت داخل أوروبا ذاتها، وأعداد كبيرة منهم تقع في أيدي تجار الرقيق داخل أوروبا لتُباع في أسواق النخاسة

(١) حرب الأيام الستة / راندولف تشرشل .

(٢) القومية والغزو الفكري ص ٨٣ .

دون إثم اقتترفوه، أو ذنب ارتكبوه سوى التصديق بقول الدجالين المتاجرين بالدين المسيحي.

وفى ١٢١٧م حتى ١٢١٨م جاءت حملة عسكرية أخرى إلى عكا، وزحفت لغزو مصر عام ١٢١٨م وذلك فى عصر الملك العادل سيف الدين أبو بكر (١٢٠٠ : ١٢١٨م) وقد تولى الحكم بعده الملك ناصر الدين محمد بن العادل (١٢١٨ : ١٢٣٨م).

* * *

(ج) واحتدم الصراع

وحدث الخلل حيث أصيب العالم الإسلامى مترامى الأطراف بمجموعة من الإنتكاسات الشديدة، والهزات العنيفة المتتالية، حيث سقطت بخارى، وسمرقند الإسلاميتين فى أيدي جنكيز خان سنة ١٢١٩م وباتت مظاهر حضارتها فى خيبر كان، وسقطت دمياط بشمال مصر على البحر المتوسط فى أيدي الحملة الصليبية الخامسة فى العام ذاته بعد حصار دام عدة أشهر، بينما جيوش جنكيز خان المغولية تغزو الأقاليم الشرقىة من الإمبراطورية العباسية، وجاءت الحملة الصليبية السادسة بقيادة «فردريك الثانى» إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة، وقد تمكن من احتلال بيت المقدس سنة ١٢٢٨م، وقد اتفق الإمبراطور الرومانى مع السلطان الأيوبى (الكامل) ليقوم الأخير بتسليم بيت المقدس للصليبيين مقابل هدنة تعهد فيها الأول بمنع الحملات الصليبية لمدة (١٠) عشرة سنوات.

وتتابعت الإنتكاسات، وتوالى الهزائم، وحلت المصائب فوق رؤوس المسلمين فى دولة الموحدين فى (٦٣٣هـ : ١٢٣٥هـ)، وفى العام التالى سقطت قرطبة فى أيدي الأسبان المسيحيين، وفى المدة من ١٢٣٨ : ١٢٣٩م (٦٣٦هـ) سقطت تباعا مدن (بلنسية، مرسية، قرطبة) سقوطا نهائيا فى أيدي الأسبان الشماليين المسيحيين.

وفى الشرق زحف الملك الأيوبى الناصر حاكم «الكرك» وفلسطين على بيت المقدس فجأة، واحتلها، وهدم تحصيناتها وعاد إلى الكرك فى ١٢٣٩م، ثم تحالف صاحب دمشق «الصالح اسماعيل»، وصاحب حمص «المنصور إبراهيم» مع الصليبيين ضد الصالح أيوب صاحب مصر، وتنازل الثلاثة للصليبيين عن المسجد الأقصى، وقبة الصخرة.

وفى الغرب سقطت مرسية فى أيدي الإسبان المسيحيين فى ١٢٤٣م، وفى العام التالى ١٢٤٤م تمكنت القوة الخوارزمية العاملة مع الصالح أيوب من استرداد بيت

المقدس من الصليبيين، وفي العام التالي كانت موقعة «غزة» وفيها تمكن الجيش المصرى والخيالة الخوارزمية من سحق للصليبيين، والحلف الثلاثى الحائن الخليف، ثم زحف أيوب نحو دمشق واستولى عليها فى عملية تصحيح لمسار التاريخ الذى ضل الطريق بعد صلاح الدين.

بينما أوروبا تدعم أسبانيا حتى سقطت «أشبيلية» فى يد الأسبان فى ١٢٤٨م، وهو العام الذى قادت فيه فرنسا حملة أوروبية صليبية سادسة بقيادة الملك الفرنسى (لويس التاسع) ، وتجمعت فى قبرص لتهاجم مصر فى العام التالى، ونزلت بدمياط، وتمكنت من الإستيلاء عليها عام ١٢٤٩م، وفى العام ذاته طرد حكام البرتغال المسلمين منها.

وفى عام ١٢٥٠م تمكن البطل المملوكى «ركن الدين الظاهر بيبرس» فى معركة المنصورة من أسر الملك الفرنسى لويس التاسع بعد هزيمة حملته عسكريا، وقضى عليها تماما فى فارسكور والمنصورة.

والغريب أن الملك الفرنسى (لويس التاسع) بعد فشله الذريع فى حملته الصليبية العسكرية على مصر، وعلى الرغم من وقوعه أسيراً بأيدي المصريين فى «المنصورة» الغريب أنه بعد أن أفرج المصريون عنه وعاد إلى بلاده أدلى بتصريح لشعبه، وللجماهير الصليبية، ولملوك أوروبا المتحمسين للسيطرة على الشرق، وضع فيه برنامج عمل للحكومات أوروبا، حدّد فيه برنامجه السياسى، وذكر فيه تصوره عن كيفية إنهاء الصراع الإسلامى بما يجعله يميل للصالح الأوروبى الصليبي ويقضى على المقاومة الإسلامية من جذورها من خلال برنامج عمل محدد عبر عنه وشرح فى نقاط قائلًا:

إنه لا يمكن الإنتصار على المسلمين من خلال الحرب، وإنما يمكن الانتصار عليهم بواسطة السياسة التالية :

(أ) إشاعة الفرقة بين قادة المسلمين، وإذا حدثت فلنعمل على توسيع شقتها ما أمكن حتى يكون هذا الخلاف عاملاً فى إضعاف المسلمين .

(ب) عدم تمكين البلاد العربية والإسلامية أن يقوم فيها حكم صالح .

(ج) إفساد أنظمة الحكم فى البلاد الإسلامية بالرشوة والفساد، والنساء، حتى تنفصل القاعدة عن القمة .

(د) الحيلولة دون قيام جيش مؤمن بحق وطنه وعليه يضحى فى سبيل مبادئه .

(هـ) العمل على الحيلولة دون قيام وحدة عربية في المنطقة، والعمل على قيام دولة غريبة في المنطقة تمتد من غزة جنوباً إلى أنطاكية شمالاً، ثم تتجه شرقاً، وتمتد حتى تصل إلى الغرب^(١).

ومنه يتضح حقيقة الدور الفرنسى الرائد فى الدعوة لقيام دولة للكيان الإسرائيلى فى قلب العرب، وكذلك فى تحديد حدودها الجغرافية المعروفة بحدود دولة إسرائيل الكبرى التى يحلمون بها (من) النيل إلى الفرات.

وظلوا يعملون لأجلها فى الخفاء حتى جاء الإنتداب البريطانى على فلسطين، وأثناءه صدر وعد بلفور الشهير بإعلان قيام دولة يهودية فى فلسطين.

لقد رسمت فرنسا المخطّط، ووضعت أفكاره ومبادئه، وتبنته بريطانيا ونفذته. وجاءت بإسرائيل إلى الوجود، وضمنت أمريكا سلامتها، وأمنها وتفوقها على جيرانها... ولنا فى التاريخ المواعظ والعبر.

ثم جاءت آنذاك الطامة الكبرى على الشرق لتقضى على الخلافة العباسية فى ١٢٥٩م وتُدْمِر حضارتها الزاهرة، حيث هجم التتار على بغداد، ثم تقدموا نحو الشام يتزعمهم (هولاكو) وقتلوا عشرات الآلاف من المسلمين، وكان نصيب حلب وحدها من القتل (خمسين ألفاً)، ثم تهيأوا لغزو مصر فخرج جيش مصر بقيادة «سيف الدين قطز» للقائهم، ومعه قائده اللامع بيبرس، والتقى الجمعان عند «عين جالوت» فى ١٢٦٠م فسحق جيش المماليك المصرى جيش المغول، وبدد جموعه وأحبط مساعيه لاحتلال مصر، وفى الغرب سقطت مدينة قادش فى أيدي الأسبان المسيحيين فى ١٢٦٢م.

وفى المغرب العربى: قصد الصليبيون بحملتهم الجديدة بقيادة الملك الساذج الذى أهمل شئون بلاده، وأقحمها فى حروب لا طائل منها، وشغل نفسه كذلك بأعمال عسكرية، وحملات حربية لم يكن أهلاً لها، فجاء إلى تونس فى ١٢٧٠م حيث الحضارة القرطاجية، ومات هناك الملك الساذج (لويس التاسع)، وفشلت الحملة الثامنة فى ذات العام.

وفى الشرق: تابع بيبرس مطاردة المغول فى العراق وظهر وادى الفرات من دناستهم فى ١٢٧١م، وخلفه بعد وفاته سنة ١٢٧٧م السلطان الأشرف «خليل بن قلاوون» الذى انتزع عكا من أيدي الصليبيين، وأنهى تماماً عهد الحملات الصليبية على فلسطين، ولم يتبق إلا بعض المدن الساحلية فى يد الصليبيين، وإلى حين.

* * *

(١) تبصير الأذهان ببعض المذاهب والأديان ص ٩.

خامساً : العبور الصليبي إلى آسيا

اتجهت أوروبا بكل قواها نحو مصارعة المسلمين، والقضاء عليهم، فبدأت بإخراجهم من الأندلس والبرتغال وفرنسا، والمناطق التي فتحوها في أوروبا، ثم الهجوم العسكري المباشر على الشام ومصر، والعبور إلى جنوب المتوسط للتوغل في إفريقيا، ثم السعى الحثيث للإنطلاق شرقاً نحو آسيا خاصة بعد أن اكتشف « فاسكودي جاما » طريق رأس الرجاء الصالح - أي - قمة الرجاء والأمل الذي يرجونه ويأملونه كطريق آمن وصالح لتحويل التجارة الأوروبية ومسالكها بعيداً عن الشرق الأوسط. فهو إذا الطريق الصالح كبديل عن الطرق العربية لذلك فهو (رأس الرجاء) وصفتُهُ أنه (صالح) للمهام الجديدة ، والآمال المرجوة . وخاصة لأنه ربط أوروبا بالهند فعلاً بدون الحاجة إلى البحرين الأحمر والمتوسط، وكان ذلك مؤشراً قوياً على الزحف الأوروبي المحتمل نحو الهند .

ويؤكد التاريخ أن أوروبا كلها قد تحركت للقضاء على الإسلام والمسلمين . دليلنا على ذلك الحملات الصليبية التي بدأت في ١٠٩٥م ولم يشأ لها أصحابها أن تتوقف عنها حتى يومنا هذا، وعبوراً إلى الغد البعيد؛ وما قيام إسرائيل إلا دليلاً حياً وقوياً على صحة قولنا، وما دعمها ومساندتها وتسليحها إلا برهاناً عملياً وفكراً منطقياً ينطق بأن طريق الصراع لازال طويلاً، ولم يزل .

وإذا كانت أوروبا قد فشلت في حملاتها الصليبية على مصر وسوريا، وفلسطين وتونس، فإن الروح الصليبية لا تزال كما كانت متأججة في نفوس الصليبيين الذين باتوا يستغلون كل فرصة، وينتهزون كل موقف، ويوظفون كل حدث ويطوعونه كي يشفوا ما في صدورهم من غل، وحقق، ويفرجوا ما في أنفسهم من حنق وتذمر، وهو امتداد لما كانوا فيه، وما يتطلعون إليه من محاولات للصراع ضد الدين الإسلامي الحنيف، وإجهاض فتوحاته، والاجهاز على أتباعه .

فجاء العبور الصليبي إلى آسيا معبراً عن صدق توجهاتهم، واضعاً الهند نصب عينيه أولاً نظراً للعلاقات القوية والقديمة التي تربط بين العرب والهنود منذ ما قبل الفتح الإسلامي . وبخاضة بعد أن توغل الإسلام في نفوس الهنود بما قد يسمح عبر قليل من الوقت بقيام امبراطورية إسلامية عظمى تضم شرق آسيا، ووسطها، وآسيا الصغرى، والجنوب الغربي منها حيث (قبلة المسلمين وقلعتهم) مكة المكرمة، وتضم

كذلك الساحل الشمالى الإفريقى، بالإضافة إلى الممالك الإسلامية التى قامت فى إفريقيا بحيث تتفوق هذه الخلافة أو الإمبراطورية على العصرين الأموى، والعباسى بما حازت من قوة، وما أضيف لها من إمكانيات بشرية وإقتصادية، وقاتلية، فى مجملها تجعل أوروبا الصليبية على شفا جرف هار ينهار بها إلى قاع التاريخ، أو قد يضع مستقبلها فى مهب الريح، خاصة مع ثراء الهند الفاحش الذى كان من الممكن أن يقدم دعائم الإقتصاد القوى الذى يقيم إن قُدر له أعتى الإمبراطوريات وأغناها، وأقواها، وأشدها بأساً وسؤدداً، بحيث تُخضع العالم لمشيئتها وتَجعله رهن إشارتها.

هذا الثراء الذى وصفه الإمبراطور (جهانكيز) فى مذكراته قائلاً: « كان ملوك الهند يُوزَنُون بالذهب فى الأعياد، ويوزَعُون ما يساويها على الفقراء والمساكين، وكُنْتُ أُوزَنُ فى السنة مرتين: مرة فى أول السنة الشمسية، ومرة فى أول السنة القمرية، وأنفق ما يساوى وزنى على الفقراء والمساكين، وكان الملوك يخرجون للتنزه مساء كل يوم، فيأخذ كل واحد منهم كيسين من المال، فيهما آلاف الروبيات، وفى الطريق يُوزَعُون هذه الأموال على الفقراء، فكان الشعب ينعم بالخيرات من كل ناحية، وكان كل دخل الهند لأهلها، لا يخرج منه شيء حتى تكدست الأموال عند كل الناس، وصارت الهند مضرب الأمثال فى الغنى، وهذا ما أغرى الغرب بالإتجار مع الهند، ولكنه اتجه لسلب الأموال بدل التجارة الحقيقية فانقلب ثراء الهند إلى وإنجلترا، فأصبحت إنجلترا تعيش فى رغد من العيش، فى حين يموت الهند جوعاً»^(١).

ويمكن القول بأن البحرية البرتغالية كانت أسبق الدول الصليبية الإستعمارية وصولاً إلى الهند، وقد سيطرت القوات البرتغالية على شرقى إفريقيا وعلى مسقط فى ١٥٠٨م بقيادة (البوكيرك) أشهر القواد البرتغاليين، وقد عرف عنه شدة تعصبه لدينه وبلاده، وقد استطاع أن يستولى على جزيرة «سقطرة» ليكمل للبرتغال السيطرة على الطريق الموصل إلى الهند، وقد أنشأ البوكيرك قواعد عسكرية برتغالية فى الطريق الجديد عند كل من هرمز، وسقطرة، وجوا، ثم إمتد الطريق إلى ملقا .

وقد تمكنت البرتغال من تكوين جيشها القوى وبناء أسطولها البحرى، ثم القيام بحركة الكشوف الجغرافية، بعد تأسيس مملكتها فى الفترة من ١١٣٨: ١١٣٩م على أطلال الحكم العربى بعد طرد المسلمين والعرب من البرتغال كما ذكرنا سابقاً.

(١) تاريخ الإسلام فى الهند ص ٣٨٠ ، ٣٨١ د.عبد المنعم النمر .

وقد تمكن البرتغاليون من الوقوف على أسباب التقدم الكبير فى فروع العلم، والمعرفة حتى تمكنوا من إنشاء امبراطوريتهم بمعدل سريع وفى زمن قياسي، الأمر الذى جعل البرتغال هى صاحبة السبق والريادة الأوروبية فى سيادة البحار، والقيام بالإكتشافات البرتغالية منذ عام ١٤٩٨م، وكذلك تمكن البرتغاليون من إقامة جيش قوى تمكن فى وقت قصير من إقامة قلاع عسكرية على طول الساحل الإفريقى الغربى حيث تم إنشاء قاعدة تجارية على ساحل الذهب (غانا) سنة ١٤٨٢م، وفى شرق إفريقيا حيث أقامت مراكز تجارية فى موزمبيق سنة ١٥٣١م، ووصولاً إلى الهند، وما كان ذلك ليكون إلا بفضل العلوم العربية، والرحالة العرب، والعلماء العرب الذين برعوا فى علوم الفلك والنجوم والصناعات العسكرية والمدنية على السواء، وقد حقق البرتغاليون أقصى استفادة ممكنة مما برع فيه العرب ونبغوا... وذلك هو الدرب ذاته الذى سار عليه الأسبان الذين توردوا على الحكم العربى الإسلامى لبلادهم وتمكنوا من القضاء عليه فى ١٤٩٢م وقد استفاد الأسبان جيداً من الحكم العربى الإسلامى لبلادهم التى كانت رمزاً لحضارة الدولة الإسلامية فى أوروبا، ولما وقف الأسبان على علوم العرب فى الطب والبحار والرياضة، والفلك، والفنون، والآداب، ومختلف فنون العلم والمعرفة، بما يسمح لهم بممارسة سياسة الدولة أعلن ملكهم (فيليب الثالث) سنة ١٦١٠م طرد نصف مليون أندلسى ممن أُجبروا فى السابق على اعتناق المسيحية أو تظاهروا بذلك - إلى خارج أسبانيا فهاجروا إلى مصر وتركيا والمغرب، وحتى فرنسا بينما بلغ جملة من هاجروا من الأندلس فى عام ١٤٩٢م وفى عام ١٦١٠م حوالى ثلاثة ملايين مسلم، غير الملايين التى أبيتدت والملايين التى هاجرت قبل ١٤٩٢م^(١).

عموماً، فقد ظلت البرتغال سيدة الموقف بلا منازع لمدة تُقارب المائة عام، ولم يضعفها ويهدد وجودها غير وقوعها تحت الإحتلال الأسبانى عام ١٥٨٠م مما أتاح لدول أوروبية أخرى دخول حلبة المنافسة بالزحف إلى المناطق الآسيوية والإفريقية للإستيلاء عليها أو إقامة امبراطوريات لها، وهذه الدول هى (هولندا، فرنسا، إنجلترا).

وكان البرتغاليون قد عملوا على أن يضموا إليهم بعض جماعات الهندوس التى تمقت المسلمين، وتكرههم بشدة بقصد اتخاذهم وسيلة داخلية لخلخلة الدولة

(١) موجز تاريخ العالم ص ١١٨، ١١٩.

الإسلامية، وإضعاف سلطتها في البلاد، غير أن البرتغاليين أساءوا معاملتهم للهندوس، ولم يحفظوا لهم عهدهم، وأبخشوهم حقوقهم، الأمر الذي أجبر هؤلاء إلى حسن استقبال الوافدين الأوروبيين الجدد، وانقسموا إلى أتباع ثلاثة مع كل من الهولنديين، والفرنسيين، والإنجليز الذين تسابقوا للسيطرة على الهند وجزرها الشرقية .

وكانت هولندا صاحبة السبق في الوصول إلى الهند بعد البرتغاليين، فسيطرت على بعض المناطق في جزر الملايو واندونيسيا التي دخلها الإسلام منذ عام ١٤٠٠ م وتغلغل في نفوس أبنائها بفضل نزاهة التجار المسلمين وأمانتهم، وأخلاقهم، كما طردت البرتغاليين من ملقا سنة ١٦٠٦ م، وقد أسس الهولنديون عاصمة امبراطوريتهم الإستعمارية في جزر الهند الشرقية في جزيرة (جاوا) الإندونيسية وأطلقوا عليها اسم (باتافيا) ، وضمت إليها جزيرة سيلان، كما أنشأت هولندا بعض المراكز التجارية، والإستعمارية في الهند مع تركيز اهتماماتها بالهند الشرقية وجزرها الشاسعة مما سمح للإنجليز بالتوغل في الداخل الهندي، أما فرنسا فقد قنعت ببعض المناطق على الساحل عند (كالكوت) .

ونتيجة لهذا الصراع الأوروبي حدثت بعض المقايضات، وقُدِّمت بعض التنازلات خاصة مع قدوم الأسبان الذين ورثوا البرتغال في الهند .

وقد تمكنت إنجلترا باستعمال أساليب دبلوماسية ملتوية أن تتخلص نهائياً من فرنسا، وأن تقضى على نشاطها تماماً في شبه القارة الهندية .

وباتت الهند تحت هذه الظروف مقسمة ثلاثة أقسام :

١- قسم مستقل في الشمال في منطقتي (نيبال، وبوتان) وسكانها من الهندوس الأقوياء الشجعان، والأراضى فيها وعرة وغير مستوية، وقد قنع الإنجليز من هذا القسم بأن يكون لهم فيه مستشار فقط .

٢- القسم الثاني : وكان تحت الحماية البريطانية ويشمل مناطق (حيدر أباد، كشمير، ميسور) ويدفع حكام هذه المناطق خراجاً للإنجليز نظير حمايتهم لهم .

٣- القسم الثالث : تقوم إنجلترا بإدارته مباشرة، وهو يشمل مناطق (البنغال، البنجاب، مدراس، ومباي)^(١) .

وأعلنت بريطانيا في ١٨٥٨ م عن تبعية الهند للتاج البريطاني (المرصع بالماسة

(١) باكستان في ماضيها وحاضرها ص ١٨ د. عبد الحميد البطريق .

المسروقة من شاهجهان دهلى - كما سبق) وبالتالي أصبحت المواجهة الإستعمارية مباشرة وبارزة ضد المسلمين فى كل اتجاهاتها وتوجهاتها، وازداد القمع ضد الهنود، وقد عمل الإنجليز على تغيير اللغة، ومناهج التعليم، فحلت اللغة الإنجليزية مكان الفارسية (لغة البلاط)، وبدأت سياسة الإحلال والإبدال فى الحركة الثقافية ومكونات أفكارها محل اللغة العربية، وللثقافة الإسلامية السمحة، وبدأت بناء المدارس، والكنائس لخدمة المفاهيم الجديدة، وبناء الفكر الحديث الذى يسهل طبيعة عمل ومهام الجماعات التبشيرية المسيحية التى كانت قد بدأت بالفعل فى الظهور وفى ممارسة أعمالها حتى من قبل إعلان السيادة البريطانية على الهند.

ويمكن إيجاز التعبير عن انزحف الإنجليز على الهند فيما قاله واحد من إخوة دينهم، وبنى أوطانهم حيث قال غوستاف لوبون:

توصل الإنجليز لفتح الهند برجال الهند وأموالها، وبعبارة أخرى بجنود غير جنود إنجلترا، ونقودا غير نقودهم، فالحق أن الهند دانت للإنجليز بجيوش مؤلفة من الهندوس، وبأموال أخذت من خزائن الهند^(١).

* * *

(١) حضارة الهند ص ٢٥٠ .